محفوظ.. والرواية.. ونوبل

الفرض الأدبى

الحديث عن كاتب عظيم مثل نجيب محفوظ ليس بالأمر السهل، لأنه ليس أديبا طال عمره، وظل يمارس الكتابة الأدبية أكثر من ستين سنة بلا انقطاع فحسب، وإنما لأنه نال رضا شعبيا وإعلاميا وحكوميا، بل لقد رضى عنه اليمين واليسار، ومن هم بين اليمين واليسار فى الثقافة العربية المعاصرة، لذلك طبعت كتبه عشرات المرات، وقدمت معظم أعماله فى السينما، وأحيانا فى الإذاعة والمسرح. كما ترجمت إلى بعض اللغات العالمية، حتى قبل أن يظفر بجائزة نوبل سنة ١٩٨٨، والتساؤل الذى تحاول هذه الدراسة الإجابة عنه هو: كيف تحول محفوظ إلى مؤسسة أدبية تجذب أنظار المثقفين، وغير المثقفين على اختلاف رؤاهم الأيدولوجية وتعدد مواقفهم الإنسانية؟

* * *

١ - الرجل

□ نجيب محفوظ.. يحمل اسما مركبا من اسمين. واسم أبيه عبد العزيز، وكان يعمل موظفا صغيرا، وفى أواخر حياته عمل بالتجارة.

□ ولد فى ديسمبر سنة ١٩١١ فى حى الجمالية، القريب من منطقة

الحسين والأزهر فى مدينة القاهرة القديمة.

□ انتقل إلى منطقة العباسية، وهو صبى صغير فى الثانية عشرة من عمره.

□ له أربع أخوات .. وأخوان .. وهو السابع الصغير- الذى يشبه «كمال» فى ثلاثية «بين القصرين».

□ نشأ فى بيئة شعبية، يسيطر عليها جو دينى صارم، وتقاليد اجتماعية محافظة.

□ أمه سيدة متدينة متحررة إلى حد ما، وكانت تصحبه - أحيانا - لزيارة متحف الآثار القديمة.. وبعض الأماكن التاريخية.

□ أبوه كان مثقفا ثقافة كلاسيكية متوسطة، وينتمى سياسيا إلى حزب الوفد، وهو حزب ليبرالى شعبى يمثل اتجاه الأغلبية فى مصر من سنة ١٩٢٣- ١٩٥٢. وقد أثر انتماء والده لحزب الوفد فى الكاتب وإبطال بعض رواياته، لأن «محفوظ» كان متعاطفا مع الجناح اليسارى فى حزب الوفد. وحين قامت ثورة ١٩٥٢ آمن بمبادئها السياسية والاجتماعية. لكنه بعد ذلك نفر منها ومن الأساليب التى اتبعتها فى الممارسة السياسية. وقد انعكس هذا فى بعض أعماله التى صدرت بعد سنة ١٩٦٧.

□ النشأة فى أسرة محافظة وأحياء شعبية قديمة [الجمالية والعباسية]، تركت بصمات فكرية حادة فى نفسه، انعكس صداها - بقوة - فى كل ما كتب، لذلك نجد معظم رواياته تدور فى أماكن بعينها، هى:

(أ) منطقة الجمالية.. فى حى الأزهر والقاهرة الفاطمية.

(ب) منطقة العباسية الشرقية.. التى تقع شرق القاهرة.

(ج) الأسكندرية. التى تعود أن يقضى فيها الصيف فى مرحلة متأخرة - نسبيا - من عمره، لذلك لا تظهر كخلفية مكانية فى أعماله الأولى.

لكن المنطقة التى أخذت دور البطولة فى معظم أعماله هى منطقة الجمالية فى القاهرة القديمة، بل إنه لم يستطع أن يتخلص من عالم [الحارة الشعبية]، حتى وهو يكتب روايات ذات طبيعة فكرية أو رمزية أو ملحمية.

□ عناصر المكان التى تدور فيها معظم رواياته هى: الحارة الشعبية القديمة فى مصر فى النصف الأول من القرن العشرين صحراء العباسية- المقابر- بيت الأسرة- المقهى- الخمارة- الفندق- بيوت الغناء الشعبى والعوالم- منطقة الأهرام- شبرا- مصر الجديدة- الأسكندرية أحيانا.

□ تنقل فى العمل ابتداء من ١٩٣٦ بين الجامعة، ووزارة الأوقاف، ومؤسسة السينما، وجريدة الأهرام.

□ أهم الكتاب المعاصرين الذين تأثر بهم: مصطفى المنفلوطى- عباس العقاد- طه حسين- سلامة موسى.

□ بدأ ينشر بعض مقالاته وقصصه القصيرة فى الجرائد والمجلات منذ سنة ١٩٣٠، أى منذ تخرجه فى الجامعة. وقد جمع بعض قصصه الأولى فى مجموعة «همس الجنون».

□ من الأدب العالمى تأثر محفوظ ببعض أعمال الكتاب الروس مثل:

تولستوى - دستويوفسكى - مكسيم جوركى، وبعض الفرنسيين مثل: أناتول فرانس- فلوبير- بروست- مالرو- موریاك- سارتر- كامى؛ وبعض الإنجليز مثل: شكسبير- ويلز- برناردشو- جيمس جويس- ألدوس هاكسلى- د.هـ. لورانس؛ وبعض الأمريكين مثل فوكنر- جوزيف كونراد؛ وبعض الألمان مثل: توماس مان- جوته- فرانز كافكا.

□ قرأ لكثير من الفلاسفة، لكن أهم من تأثر بهم فرويد، وداروين، وماركس، وبرجسون.

□ تزوج سنة ١٩٥٤، وله بنتان هما: أم كلثوم وفاطمة.

□ ظل يلتقى بأصدقائه ومعارفه خارج البيت فى مقهى الأوبرا وسط القاهرة، أو فى مقهى ميدان التحرير، أو فى مقهى الأسكندرية، حين كان يذهب إليها فى الصيف.

□ لم يخرج من مصر إلا مرتين فى زيارتين قصيرتين: لليمن وبوجوسلافيا فى مؤتمرات أدبية، لأنه لا يميل إلى السفر، الذى قد يتعارض مع نظامه الصارم فى القراءة والكتابة.

□ يحب الموسيقى الشرقية والغناء القديم، لذلك يفضل أغانى منيرة المهدية وأم كلثوم وسيد درويش أكثر من غيرها.

* * *

٢ - الكاتب

□ تعلم محفوظ فى المدارس وتخرج فى كلية الآداب - جامعة القاهرة

- قسم الفلسفة سنة ١٩٣٤. وكما تأثر كاتبنا بقوة بالمناطق الشعبية، التى عاش فيها وهو صغير، تأثر- بنفس القوة - بدراسة الفلسفة، لذلك نجد بعض شخصياته الروائية تعانى أزمات فكرية أو عقائدية، مثل الصراع بين اليمين [الدين] واليسار [الفكر الاشتراكى]، وتعانى أزمة البحث عن المصير، وعلاقة الأرض بالسماء والإنسان بالله. كما فى روايات: أولاد حارتنا - الطريق - الشحاذ.

□ محفوظ روائى درس الفلسفة، لذلك حاول - كثيرا - أن يوفق بين العلم والأدب والفلسفة، لذلك كان يعانى- من خلال بعض شخصيات رواياته - أزمة التوفيق بين العقيدة الدينية والاشتراكية العلمية.

□ من عوامل نجاح محفوظ - روائيا - دراسته المنظمة للفكر الفلسفى والسياسى، ومعرفته القوية بتاريخ مصر القديم والحديث. وهذا ما جعل له رؤية سياسية وفكرية فى معظم ما كتب من قصص وروايات. كما أنه انحاز - بقوة - [للمذهب الواقعى] فى الكتابة.. بكل تياراته وتجلياته.

إن كاتبنا حين بدأ سنة ١٩٣٩، كانت الواقعية فى طريقها إلى الغياب فى معظم الآداب العالمية، ولاسيما المؤثرة منها فى الأدب والنقد العربى مثل: الأدب الإنجليزى والفرنسى والروسى والأمريكى والألمانى وبعض الآداب الاسبانية وبدأت تظهر فيها اتجاهات أدبية جديدة مثل الوجودية والسريالية واللامعقول ورواية تيار الشعور. لكن «محفوظ» اختار الواقعية - مذهبا للتعبير الأدبى. ولا نغالى إذا قلنا إنه من أهم روادها والمبشرين بها فى الأدب العربى الحديث.. قاطبة.

□ يضاف إلى دراسة الفلسفة والتاريخ والانحياز الدائم للواقعية- منذ بداية الكتابة حتى النهاية- أن الكاتب قد انحاز أيضا إلى الطبقة [البرجوازية] - خاصة برجوازية التجار والموظفين، لكى يختار منها نماذجه البشرية. والبرجوازية طبقة كبيرة وخطيرة فى كل المجتمعات، لذلك فقد أرضى أشواق شرائحها المختلفة من القراء والنقاد والأدباء والصحفيين. وقد أسهمت البرجوازية المصرية - كثيرا - فى الحفاوة بكاتب يعبر عن أزماتها الحادة وأشواقها المشروعة وغير المشروعة. فمحفوظ هو [كاتب البرجوازية المصرية]، الذى استطاع أن يعبر عن أهم أزماتها الاقتصادية والاجتماعية والعاطفية والجنسية.. كذلك عبر أيضا عن بعض مشكلاتها السياسية المختلفة وقلقها الروحى، الذى يتصل بعلاقة الإنسان بالميتافيزيقا.

□ من أسباب شهرة محفوظ أيضا أنه فطن - منذ وقت مبكر- إلى أن الرواية نوع أدبى أكثر خلودا وأشد تأثيرا من القصة القصيرة، لذلك فهو روائى أكثر منه كاتب قصة، ومن هنا فقد كتب (٣٢) رواية، و(١٨) مجموعة قصصية.

* * *

روايات محفوظ

١ – عبث الأقدار	١٩٤٣
٢ – رادوبيس	١٩٤٤
٣ – كفاح طيبة	١٩٤٥
٤ – القاهرة الجديدة	١٩٤٦
٥ – خان الخليلى	١٩٤٧
٦ – زقاق المدق	١٩٤٨
٧ – السراب	١٩٤٩
٨ – بداية ونهاية	١٩٥٦
٩ – بين القصرين	١٩٥٧
قصر الشوق	١٩٦١
السكرية	١٩٦٢
١٠– اللص والكلاب	١٩٦٤
١١– السمان والخريف	١٩٦٥
١٢– الطريق	١٩٦٦
١٣– الشحاذ	١٩٦٧
١٤– ثرثرة فوق النيل	١٩٦٧
١٥– ميرامار	١٩٧٢
١٦– أولاد حارتنا	١٩٧٤
١٧– المرايا	١٩٧٥

١٨ – الكرنك	١٩٧٥
١٩ – حكايات حارتنا	١٩٧٥
٢٠ – قلب الليل	١٩٧٧
٢١ – حضرة المحترم	١٩٨٠
٢٢ – ملحمة الحرافيش	١٩٨١
٢٣ – عصر الحب	١٩٨٢
٢٤ – أفراح القبة	١٩٨٢
٢٥ – ليالى ألف ليلة	١٩٨٣
٢٦ – الباقى من الزمن ساعة	١٩٨٣
٢٧ – أمام العرش	١٩٨٣
٢٨ – رحلة ابن فطومة	١٩٨٥
٢٩ – العائش فى الحقيقة	١٩٨٥
٣٠ – يوم قتل الزعيم	١٩٨٥
٣١ – حديث الصباح والمساء	١٩٨٧
٣٢ – قشتمر	١٩٨٨

وقد سئل محفوظ – أكثر من مرة – عن أحب هذه الروايات إلى قلبه، فذكر إنها: الثلاثية – أولاد حارتنا – الحرافيش – حكايات حارتنا.. ويبدو أن هذه الروايات الأربعة لها علاقة عاطفية وفكرية بمخيلة الكاتب، والبيئة التى عاش فيها، وبعض الشخصيات التى ارتبط بها، والأزمات الفكرية التى عانى– هو شخصيا – منها.

المجموعات القصصية

١ – همس الجنون	١٩٣٨
٢ – دنيا الله	١٩٦٢
٣ – بيت سيىء السمعة	١٩٦٥
٤ – خمارة القط الأسود	١٩٦٩
٥ – تحت المظلة	١٩٦٩
٦ – شهر العسل	١٩٧١
٧ – الجريمة	١٩٧٣
٨ – الحب فوق هضبة الهرم	١٩٧٩
٩ – الشيطان يعظ	١٩٧٩
١٠ – رأيت فيما يرى النائم	١٩٨٢
١١ – التنظيم السرى	١٩٨٤
١٢ – صباح الورد	١٩٨٧
١٣ – الفجر الكاذب	١٩٨٨
١٤ – القرار الأخير	١٩٩٦
١٥ – صدى النسيان	١٩٩٩
١٦ – أصداء السيرة الذاتية	٢٠٠٠
١٧ – فتوة العطوف	٢٠٠١
١٨ – أحلام فترة النقاهة	٢٠٠٥

معنى ذلك أن «محفوظ» استطاع أن يقدم للتاريخ الإنسانى خمسين عملا، وهذا إنتاج أدبى ضخم، أنجزه كاتب عظيم فى حوالى سبعين سنة، بالإضافة إلى كتاب مترجم ألفه «جيمس بيكى» بعنوان «مصر القديمة»، وهو أول ما صدر له سنة ١٩٣٢. هذا الإبداع المتواصل المتميز يؤكد عبقرية ذلكم الأديب العالمى وأصالته.

* * *

٣ - الرواية قبل محفوظ

إذا حاولنا أن نتأمل الخريطة الأدبية لمسيرة الرواية- قبل أن يسهم فيها محفوظ

- فسوف نجد أن:

١ - تاريخ الرواية الحديثة فى مصر يبدأ قبل محفوظ بحوالى نصف قرن، أى من سنة ١٩١٤، التى ظهرت فيها رواية «زينب» لمحمد حسين هيكل.

٢ - الرواية خلال هذه المرحلة الأولى، كانت رومانسية الاتجاه، تعنى بسرد مشكلات الحب، وأحيانا تضيف على هامش الموضوع العاطفى للرواية بعض القضايا الاجتماعية والاقتصادية أو السياسية، كما نجد فى روايات: زينب لهيكل، وعودة الروح لتوفيق الحكيم.

٣ - الرواية التاريخية: كانت تكتب بأعداد كبيرة، لذلك تكاد تتساوى الروايات التاريخية والاجتماعية فى تلك الفترة من حيث الكم والكيف.

٤ – معظم كتاب الرواية الرومانسية: الاجتماعية والتاريخية، كانوا [هواة] غير متفرغين لكتابة الرواية، لكن المسئولية الأدبية فرضت عليهم ضرورة الإسهام فى تأسيس هذا النوع الأدبى الجديد وتثبيت أصوله.

٥ – الجيل الذى ينتمى إليه محفوظ من الكتاب، يمثل جيل (التخصص) والتفرغ لكتابة الرواية. وأهم من يمثل هذا الجيل: نجيب محفوظ – عادل كامل – يحيى حقى – محمد عبد الحليم عبد الله – عبد الحميد جودة السحار – يوسف السباعى – إحسان عبد القدوس – سعد مكاوى – عبد الرحمن الشرقاوى – يوسف إدريس – محمود البدوى.

٦ – امتاز محفوظ على معظم كتاب جيله بأنه اختار (الواقعية) مذهبا أدبيا لرواياته وقصصه، فى حين واصل بعض زملائه الكتابة فى إطار الرؤية الرومانسية، لذلك أسميتهم: «الرومانسيون الجدد»؛ لأن الجديد هم الروائيون، وليس مذهبهم.

٧ – كذلك امتاز على كتاب جيله، ومن تلاه من الرومانسيين والواقعيين على حد سواء بكثرة الإنتاج وجودته. ومغامراته الإبداعية، التى يحاول أن يعكس فيها كثيرا من قضايا الواقع الساخنة، لذلك يمكن – بشكل ما – أن نجد صدى واضحا لحركة المجتمع المصرى وقضاياه السياسية والفكرية فى أغلب نتاجه الروائى والقصصى.

٨ - عرف محفوظ بشكل جماهيرى واسع بعد ثورة ١٩٥٢. وبعد ظهور عمله الأدبى الضخم.. ثلاثية «بين القصرين»، لأن هذه الفترة هى مرحلة ازدهار الفكر اليسارى الذى صاحب ثورة ١٩٥٢، واعتبر محفوظ واحدا من أهم أدباء هذا التيار.. لذلك رضيت عنه الحكومة.. والمثقفون.. ورجال الإعلام.. والسينما.. وكتبت حوله دراسات نقدية.. ورسائل أكاديمية لا حصر لها، وعلى هذا فقد نال ما لم ينله الكثيرون.. وحظى بما هو أهم من جائزة نوبل، حيث يعد واحدا من الأدباء العظام.. وهرم الرواية العربية.

* * *

٤ - محفوظ.. روائيا

أول رواية نشرت لمحفوظ كانت سنة ١٩٣٩، وآخر رواية سنة ١٩٨٨. وفى خلال هذه السنوات الخمسين مر نتاجه الروائى بعدة مراحل هى:

(أ) المرحلة التاريخية [١٩٣٩- ١٩٤٤]: التى استلهم فيها تاريخ مصر الفرعونية، وقدم فيها إشارات ورموزا، تتصل ببعض قضايا المجتمع المعاصر. وهذه الروايات هى: عبث الأقدار- رادوبيس - كفاح طيبة - ويلحق بها من رواياته الأخيرة: العائش فى الحقيقة [١٩٨٥].

(ب) الواقعية النقدية [١٩٤٥ - ١٩٧٥]: كتب فيها روايات تهتم بتصوير بعض أزمات الواقع المصرى قبل ثورة ١٩٥٢ على المستوى الاجتماعى والسياسى، وهى: القاهرة الجديدة - خان الخليلى- زقاق المدق - السراب - بداية ونهاية- الثلاثية «بين القصرين - قصر الشوق- السكرية».

(ج) الواقعية الفلسفية [١٩٦١ - ١٩٦٧]: أصيب محفوظ بصدمة فكرية بعد قيام ثورة ١٩٥٢، لأنه ظن أنها قد حققت قدرا من العدالة الاجتماعية والحرية السياسية، التى كان يدعو إليها فى كتاباته، من هنا اتجه إلى كتابة روايات يغلب عليها البعد الرمزى والتفسير الميتافيزيقى والتساؤل الفلسفى عن علاقة الإنسان بالكون.. ومحاولة التعرف إلى بعض القيم، التى تربط بين الأديان المختلفة. وقد انتهى الكاتب من ذلك كله إلى أن المتصوف هو أقدر البشر على إدراك الحقيقة العليا، ومع ذلك لم يتوقف عند المتصوف إلا باعتباره شخصية ثانوية، لأن الصراع الذى دار فى نفسه بين العلم والفلسفة والدين، حسم بتأثير من فكر داروين وماركس لصالح العلم.

الروايات التى تمثل هذه المرحلة الفلسفية هى: اللص والكلاب - السمان والخريف - الطريق- الشحاذ- ثرثرة فوق النيل- ميرامار- أولاد حارتنا.

(د) العودة إلى الواقعية النقدية [١٩٧٢- ١٩٨٨]: أصدر كاتبنا فى هذه المرحلة الروايات التالية: المرايا - الكرنك - حكايات حارتنا

- قلب الليل - حضرة المحترم - ملحمة الحرافيش - عصر الحب - أفراح القبة - ليالى ألف ليلة - الباقى من الزمن ساعة - رحلة ابن فطومة - يوم قتل الزعيم - حديث الصباح والمساء- قشتمر.

فى هذه المرحلة الأخيرة عاد محفوظ لعالمه المفضل عالم الأحياء الشعبية، التى نشأ فيها وظل فى معظم أعماله، عاشقا لها.

كما استمر يكتب على ضوء المفاهيم الواقعية للأدب، من هنا كان جريئا - بالقياس إلى معظم كتاب عصره - فى طرح بعض القضايا السياسية والصراعات الأيدولوجية، التى كان يتناقش فيها بعض إنتلجنسيا البرجوازية المصرية، كما أنه كان قادرا - بالإضافة إلى ذلك - على تصوير قضايا الحب والجنس وعالم الشواذ، وطائفة العوالم والخدم والعمال بطريقة فنية عميقة وجذابة.

كذلك استمر محفوظ وفيا لانتمائه الطبقى: فأبطال معظم رواياته دائما من الطبقة البرجوازية فى الأحياء الشعبية من القاهرة، سواء أكانوا من التجار أم من المثقفين وصغار الموظفين وطلبة الجامعة. وهو يورد بعض الشخصيات الهامشية من الطبقة الأرستقراطية أو بعض الشخصيات الثانوية من الطبقة الشعبية. لكن هؤلاء الأغنياء وأولئك الفقراء - دائما - فى رواياته على هامش الأحداث.

من هنا يتميز محفوظ بأنه بدأ وانتهى كاتبا واقعيا ملتزما بالتعبير عن الطبقة الوسطى فى المناطق الشعبية من القاهرة القديمة.

ملاحظة أخيرة: يدركها كل من يتابع تطور النتاج الروائى عنده:

وهـى أن البطل فى معظم رواياته يتحـرك فى مرحلة زمنية قريبة من عمر كاتبنا نفسـه، لذلك نلحـظ أن الأبطال فى معظم رواياته الأولى من الشـبان.. وفى الوسـطى من الرجال.. وفى المرحلة الأخيرة من الشيوخ - كبار السـن. فبطل إحـدى مجموعاته الأخـيرة [١٩٨٧]، يقول عن نفسـه: «اليوم أبدأ حياة أخرى، حياة التقاعـد. عمر طويل تقضّى فى خدمة الحكومة، أفنى شـبابى وكهولتى، وأطل بى على الشـيخوخة، وأظلنى بولاء لملك وأربعة رؤسـاء [جمهورية]، فلم يشـعر أحدهم لى بوجود..».

وشخصيات روايته الأخيرة «قشتمر» [١٩٨٨] ولدوا فى سنة قريبة من السـنة التى ولد فيها، وعاشـوا فى الأحياء التى عاش فيها، وهى هنا العباسـية. «العباسية فى شـبابها المنطوى، واحة فى قلب صحراء مترامية، بدأ التعارف عام ١٩١٥ فى فناء مدرسـة البرامونى الأولية. دخلوهـا فى الخامسـة وغادروها فى التاسـعة. ولدوا عـام ١٩١٠ فى أشـهر مختلفة، لم يبارحوا حيهم حتى اليوم الأول، وسـيد فنون فى قرافـة باب النصر...» فشـخصيات آخر رواياتـه يتحركون فى منطقة «العباسية»، التى عاش فيها مرحلة صباه.. كما أنهم ولدوا سنة ١٩١٠ فى حين ولد محفوظ ١٩١١.

هذا كله يؤكد أن محفوظ - كان يستوحى شخصيات قريبة من عمره الزمنى.. على أى شىء يدل هذا؟!

ننتهـى من هذا العرض الموجز لحديثنا عن محفوظ لنؤكد أن كاتبنا له رؤية فلسـفية وسياسـية وأدبيـة، ظل [محافظـا] عليها - إلى حد

كبـير- من البدء إلى الختام. وقد اسـتطاع أن يعكـس حركة المجتمع المصرى فى أكثر من نصف قرن، ويصور كثيرا من قضاياه ومشـكلاته، من خـلال رؤية شمولية، وعـالم رحب، تأخـذ البرجوازية الصغيرة مكانا مهما فيه.

* * *

٥- محفوظ.. ونوبل

على رغم أن جائزة «نوبل» العالمية، تمنح منذ سـنة ١٩٠١- إلا أن الأدباء العرب كانوا قد يئسوا من إمكانية منحها لواحد منهم. وقد سبق أن رشـح لها توفيق الحكيم وطه حسين، لكن باب الفوز لم يفتح، على رغـم أهمية تراث كل منهما. وهذا ما جعل المثقفين العرب، يؤمنون أن تلك الجائزة، لا تمنح لأسباب أدبية فقط.

وفجأة أعلنت الأكاديمية السويدية يوم ١٣/ ١٠/ ١٩٨٨ قرارها بمنح محفوظ الجائزة. ومما جاء فى حيثيات القرار: «طبقا لقرار الأكاديمية السـويدية فقد منحت جائزة نوبل فـى الأدب هذا العام لكاتب مصرى لأول مرة، هو نجيب محفوظ، الذى ولد ويعيش فى القاهرة. وهو أيضا أول كاتـب يفوز بالجائزة من بـين كتاب اللغة العربيـة. وهو يكتب منذ خمسـين عاما. وأعظم إنجازاته هـى الرواية والقصة القصيرة. وقد أعطى إنتاجه دفعة كبرى للقصة باعتبارها نوعا أدبيا، يتخذ من الحياة اليومية مادة له. كما أنه أسـهم فى تطويـر اللغة العربية كلغة أدبية.

ولكن ما حققه محفوظ أعظم من ذلك، فأعماله تخاطب البشرية جمعاء، وليس فقط أولئك الناطقين بالعربية.

إن أدب محفوظ يتميز بالثراء والتنوع الواسع، وبالواقعية ذات الرؤية المباشرة والغموض المثير بدلالاته النافذة، وإن أعماله تشكل فنا عربيا فى القص والرواية، يخاطب البشرية كلها. وإن هذه الأعمال استهدفت إعطاء دفعة كبيرة للرواية، كنوع أدبى فى الآداب العربية..»

وفوز روائى عربى بهذه الجائزة العالمية، له - فى تقديرى - أكثر من دلالة بالنسبة للكاتب، واللغة التى يكتب بها، والأمة التى ينتسب إليها. لكنى سأكتفى بدلالتين - فقط الآن - هما:

(أ) دلالة هذا الفوز بالنسبة لمحفوظ: إنه اعتراف عالمى بدوره العظيم، باعتباره كاتبا عربيا متميزا، استطاع أن يصور حياة الناس فى بلاده تصويرا واقعيا مؤثرا، لا يخلو من رؤية فلسفية للكون والحياة والإنسان. الأديب الحق صاحب رؤية فنية خاصة إزاء قضايا الحياة الكبرى. ومحفوظ واحد من الكتاب العظام القلائل، الذين يمكن أن نستشف من أعماله أن له موقفا فكريا متكاملا إزاء قضايا الحياة الكبرى، التى تتصل بالعقيدة والسياسة وقضايا المجتمع وعلاقة الإنسان بالآخر.

إن عالم محفوظ الروائى والقصصى عالم [محلى] بالمعنى الضيق لكلمة المحلية، فمعظم أعماله تدور فى أحياء شعبية بعينها فى

القاهرة القديمة، و على رغم ذلك فإن أدبه يتجاوز تصوير أزمة الفرد إلى التعبير عن قضية الإنسان.

(ب) هذه الجائزة ذات دلالة أخرى بالنسبة للأدب العربى:

إن الرواية فن حديث النشأة فى الآداب العالمية كلها. وحين ظهر هذا الفن الجديد فى مصر، وغيرها من البلاد العربية – رأى بعض المستشرقين والنقاد العرب أن الرواية شكل أدبى [وافد]، وأن الأدب العربى قد استعار قواعده وأشكاله من الآداب الأوروبية. دليلهم على هذا أن معظم رواد الرواية [مثل: هيكل والحكيم وطه حسين والمازنى وفريد أبو حديد.. وغيرهم]، قد تثقفوا ثقافة أوروبية رفيعة. بل إن بعضهم كتب روايته الأولى وهو مقيم فى أوروبا فى أثناء فترة دراساته العليا.

نحن لا نعتقد فى سلامة هذا الرأى، لأن الظواهر الأدبية ظواهر معقدة، وليس هناك سبب واحد يؤدى إلى وجود ظاهرة ما – أدبية أو غير أدبية – وهذا يعنى أن نشأة الرواية العربية، كانت محصلة لأسباب قومية وأخرى وافدة.

ننتهى من ذلك كله إلى أن الأدب العربى استطاع فى فترة وجيزة – أن يؤصل تقاليد الرواية، وأن يجعلها فنا له وجوده واحترامه على النطاقين: المحلى والعالمى فى آن واحد. وبعد أن كان الأدب العربى أدب شعر وخطابة، أصبح أدب رواية ومسرح.. باختصار صار أدبا عالميا، يبدع فى كافة الأنواع الأدبية المعاصرة: نثرا وشعرا. وهذا كله يعد تعبيرا عن طموح الإنسان العربى نحو الحرية والإبداع والنهضة.